استرداد البضاعة

سميح حمودة

هناك حقيقة تاريخية ثابتة تنص على أن علاقات العرب بأوروبا منذ تاريخ قديم، وهي لم تبدأ بعهد الإسلام وانتشار دعوته في الأرض، وإنما كانت موجودة قبل هذا الظهور الإسلامي.

ولم يكن ظهور الإسلام وانتشاره ليعطل هذه العلاقة وينهيها، بل إنه أعطاها دفعاً جديداً، ومد في شرايينها دماً غزيراً. وقد تطورت في شكلين، أحدهما الحرب والقتـال والـصراع، وثانيهما التبادل التجاري والفكري والثقافي والمعرفي، وحيثما نجد في تاريخ المواجهـة بـين الإسلام وأوروبا جيوشاً ومعارك دامية، نجد أيضاً تبادلاً فكرياً ولقـاءات علميـة وتـأثيرات معرفية وفلسفية متبادلة.

فهل يمكن والحالة هذه الحديث عن معرفة وفلسفة غربية منفصلة عن العرب والمسلمين ومعارفهم وفلسفاتهم؟ وهل يصح القول بأن الرتق الثقافي والحضاري والفكري بين الإسـلام والغرب واسع المساحة عميق الأبعاد ولا يمكن جسره؟

تناقش هذه الورقة قضية الانفصال والاتصال بين الفكـر العربـي-الإسـلامي والفكـر الغربي، وهي في بحثها للفكر لا تقول بوجود فكر واحد موحد في البقعة الجغرافية وفي المدى التاريخي الذي يعيشه وعاشه العرب والمسلمون، وبآخر موحد في الغرب الجغرافـي وفـي إطاره التاريخي. وهذا الانطلاق سيسمح لنا باستخدام منظور تحليلي يفترق عن منظور العديد من المناهج الإستشراقية التي أنكرت دوراً أساسياً للعرب والمسلمين في تبلور ونمـو الفكـر الغربي، واعتمدت الانفصال التام بين ما أطلقت عليه الشرق وبين الغرب. وهـذا الانفـصال المزعوم هو ما يعتمده اليمين الأمريكي-الصهيوني اليوم في حديثه عن وترويجه لنظريته في صراع الحضارات، وهي النظرية التي تقود اليوم سياسة أمريكا وبريطانيا ودول أوروبا تجاه العرب والمسلمين، ويروج لها دعاة مثل برنارد لويس وصمويل هنتنغتون ودانيـال بـايبس وغيرهم.

تجادل هذه الورقة بأن الفكر الغربي حين تمحور حـول أوروبـة وتاريخهـا وفكرهـا، واعتبرها مركز التاريخ البشري وأساس الفكر الإنساني، قد انتهج في روايته لتـاريخ الفكـر إنكار دور الآخرين (غير الأوروبيين) فيه. فمنذ عهد التنوير تركز البحث في تعزيز تأثيرات الفكر اليوناني على الغرب الحديث، وتم تجاهل التأثيرات الشرقية مثـل التـأثيرات اليهوديـة

والإسلامية، على أساس أنها لا تنسجم مع التفكير العلماني والعلمي والمنطقـي الـذي أخـذ بالانتشار في الغرب. وحين كتب تاريخ الفلسفة تم تجاهل دور العرب والمسلمين فيها تمامـاً. وصور فلاسفتهم على أنهم مجرد ناقلين لهذه الفلسفة من اللغة اليونانية إلى العربية. ومن ثـم نقلها للاتينية واللغات الأوروبية الأخرى على يد المترجمين الغربيين بعد أن ضاعت أصولها اليونانية.

على أن البحث العلمي المعاصر، وهو بحث جرى في أغلبه على يد علماء غربيين، قـد وجه سهاماً نقديةً قاسية للرواية الغربية المتمحورة حول أوروبا، وبين من خلال مناهج البحث الأنثروبولوجية واللغوية – اللسانية والآثارية والتاريخية أن الغرب الفكري لم يتطور من ذات نفسه، بل اعتمد على روافد فكرية قوية آتية من أسيا وأفريقيـا، وأن دور فلاسـفة العـرب والمسلمين في تطور فكره مما لا يمكن إنكاره أمام الحقائق الثابتة تاريخياً. وهنا يمكن الإشارة لأعمال زيغرد هونكة وجاك بيرك ومارشال هدجسون ومارتن برنال وغيرهم.

تحاول هذه الورقة كيف ولماذا تم إخفاء دوائر الاتصال بين الفكـر العربـي والإسـلامي والفكر الغربي، وباسـتخدام المـصطلح الفوكـوي Suppressed Knowledge (المعرفـة المغيبة) والذي استخدمه فوكو للحديث عن المعارف التي تم تغييبها من التاريخ الأوروبي مثل نصوص التيارات والجماعات المسيحية المنشقة عن الكنيسة، سنجد أن تغييب دور الإسلام في الفكر الغربي كان عملاً سياسياً ينسجم مع حركة الاستعمار التي نظرت إلى الآخر المـستعمر نظرة دونية، فكيف يمكن لها أن تقر له بالأسبقية عليها وبالفضل في الفكر والفلسفة؟!.

إن على المفكر والباحث المسلم أن لا يقع في شباك مقولات الاستـشراف الاسـتعماري واليمين الأمريكي-الصهيوني فيردد دون فحص وتفكير لمقولة الانفصال بين الإسلام والغرب في الفكرة والثقافة، بل إنه مطالب بالبحث عن جذور الفكر الغربي ليكشف فيها عن تـأثيرات المفكرين والفلاسفة العرب والمسلمين العظام، وأن يطور فكرة ومنـاهج بحثـه بنـاء علـى انجازات هؤلاء لمفكرين، ويعيد دراستها وصياغة مناهجها بحيث يقدم فكراً معاصراً يـصلح لمعالجة القضايا الراهنة أمام العرب والمسلمين، وهو بـذلك يعـود إلـى الجـذور العربيـة والإسلامية الأولى ويطورها لتلاءم الواقع مستفيداً من التجربة الغربية معها.